

عنايتهم بها، وحرصهم عليها. فكيف يفتب عنهم شيء منها، وهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نيفا وعشرين عاما قبل الهجرة وبعدها، لحفظوا عنه أقواله وأفعاله، « ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وقيامه وقعوده، واجتهاده وعبادته، وسيرته وسراياه ومغازيه، ومزاحه وزجره، وخطبه وأكله وشربه، ومعاملته أهله، وتأديبه فرسه وكتبه إلى المسلمين والمشركين، وعهوده وموائيقه، والحائظه وأنفاسه وصفاته، هذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة، وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام أو تحاكموا فيه إليه»^(١) فكانوا بحق خير خلف لخير سلف رضى الله عنهم.

٤ — انتشار السنة في عهد الرسول

حطية الصلاة والسلام

انتشرت السنة مع القرآن الكريم منذ الأيام الأولى للدعوة، يوم كان المسلمون قلة يجتمعون سرا في دار الأرقم بن عبد مناف، يتلقون تعاليم الدين الجديد يقرءون القرآن، ويقيمون شعائرهم، وما لبث النبي عليه الصلاة والسلام أن صدع بأمر الله تعالى، وكثر المسلمون، وعم الإسلام الجزيرة العربية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل الدعوة يبلغ الناس، ويفتيهم ويقضى بينهم، ويخطبهم ويسوسهم في السلم والحرب، وفي الشدة والرخاء، ويعلمهم فيحفظون الأحكام ويطبّقونها. وقد تضافرت عوامل عدة تسكفت بنشر السنة في الآفاق، منها:

(١) المدخل إلى كتاب الإنجيل في أصول الحديث ص ٢ - ٨.

١ - نشاط رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وجده في تبليغ دعوته ونشر الإسلام ، فلم يترك وسيلة للدعوة إلا استفاد منها ، ولا سبيلا إلا سلكها ، فعرض نفسه على القبائل ، وتحمل الصعاب وصنوف الأذى ، واتصل بوفود المواسم وعرض عليهم الإسلام . . . فلم يأل جهدا في تبليغ الرسالة . . . حتى عز الإسلام وقويت دولته . . . وفي جميع تلك التطورات كانت السنة تأخذ مكانها في نفوس المسلمين .

٢ - طبيعة الإسلام ونظامه الجديد ، الذي جعل الناس يتساءلون عن أحكامه ، وعن رسوله وأهدافه ، فكان بمض من يسمع بالدعوة يقبل على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يسأله عن الإسلام فيعلن إسلامه ، وينطلق إلى قومه ليبلغهم ما رأى ويخبرهم ما سمع . . .

٣ - نشاط أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، واندفاعهم في طلب العلم وحفظه وتبليغه ، وقد سبق أن تكلمت مفصلا عن نشاطهم العلمي في بحث « كيف كان الصحابة يلقون السنة ؟ » .

٤ - أمهات المؤمنين رضى الله عنهن :

كان لأمهات المؤمنين فضل عظيم في تبليغ الدين ، ونشر السنة بين نساء المسلمين ، فقد كان بمض النساء ينجطن من أن يسألن رسول الله عليه الصلاة والسلام عن أمورهن فيجدن عند أزواجه ما يشفي غليلهن ، لأنهن على صلة دائمة به ، يتعلمن منه الأحكام ، وينقلن عنه ما لا يتاح لغيرهن نقله ، وقد اشتهرت السيدة عائشة رضى الله عنها بعلمها والتزير ، وحرصها على فهم الأحكام ، فعن ابن أبي مليكة « أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

مَنْ حُوسِبَ عُدْبَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى «... فَتَرَفَ
يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا » ؟ قَالَتْ : فَقَالَ : إِمَّا ذَلِكَ الرَّضُ وَلَكِنْ مَنْ
نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ (١) .

وقد عرف المسلمون سمو مكائنها ، وتعمقها في أحكام الإسلام ، فكانت -
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - محط أنظار طلاب العلم والمستفتين
ومرجعهم في كثير من أمور دينهم .

٥ - الصحابيات : كان للنساء أثر عظيم في حفظ السنة وتبليغها لا يقل
عن أثر الصحابة رضي الله عنهم ، وقد رأينا حرصهن على حضور مجالس الرسول
عليه الصلاة والسلام ، حتى إذا مارأين الرجال قد غلبوهن على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، طلبن منه أن يعين لهن جلسات خاصة بهن يسألنه فيها عن أمورهن
ويتعلمن أحكام الإسلام . . . كما أنهن كن يشهدن بعض المواسم كصلاة العيد
ويستمعن إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهؤلاء الصحابيات
أثر عظيم في حمل أحكام كثيرة تتعلق بالنساء وحياتهن الزوجية ، كان من
الصعب أن يسأل الصحابة عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦ - رسله صلى الله عليه وسلم وبعوثه وولاته :

أصبحت المدينة بعد الهجرة مقر الدولة الإسلامية ، وقاعدة الدعوة : تبعث
منها الهداية إلى الآفاق ، وتنحطم على إثرها أصنام الشرك ، وتنقوض أمامها
عرش الطغيان ، فمن يثرب انطلق رسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبائل
المجاورة والفاثية ، يدهونهم إلى الإسلام ، ويعلمونهم أحكامه ونظمه ، عندما
كانت قريش تحول بين القبائل المسلمة والنبي عليه الصلاة والسلام ، وكان

(١) فتح الباري ص ٢٠٧ ج ١٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجه رسله ويرشدهم ويعلمهم أصول الدعوة ويأمرهم أن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن ذلك وصيته لمعاذ ابن جبل ولأبي موسى الأشعري عندما وجههما إلى الين^(١) : قال عليه الصلاة والسلام « بَسْرًا وَلَا تَعْسْرًا ، وَبَشْرًا وَلَا تَنْفَرًا » ، وقال لمعاذ رضي الله عنه : « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ فَتَرُدُّ فِي قُرَابِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَيَاكُ وَكِرَامِهِمْ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ^(٢) » : « وَكَانَ يَشْجَعُ عَمَالَهُ وَقَضَايَهُ ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « بَعْثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَبْعَثُنِي إِلَى قَوْمٍ هُمْ أَسْنُّ مَنِي لِأَقْضَى بَيْنِهِمْ ، قَالَ : اذْهَبْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ^(٣) . »

وقد كانت بعوثه عليه الصلاة والسلام وولايته خير من يحمل الرسالة ويؤدى الأمانة .

وفي السنة السادسة كثرت بعوثه صلى الله عليه وسلم ، فقد وجه بعد صلح الحديبية رسله إلى الملوك ، يحملون إليهم كتبه ، ففي يوم واحد انطلق ستة نفر إلى جهات مختلفة يتكلم كل واحد منهم بلسان القوم الذين بعث إليهم^(٤) ،

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ص ٧٢ ج ٣ وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة .

(٢) صحيح مسلم ص ٥٠ حديث ٢٩ و ٣٠ ج ١ .

(٣) مسند الإمام أحمد ص ٧٣ حديث ٦٦٦ ج ٢ باسناد صحيح .

(٤) انظر الصباح المص ، ص ٤٠ .

فقد اشتهر أنه أرسل رسلة إلى قيصر الروم (١) ، وإلى أمير بصرى ، وإلى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق من قبل هرقل ، وإلى المفوقس أمير مصر من قبل هرقل يدعوهم إلى الإسلام ، كما وجه كتبه إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المنذر بن ساري ملك البحرين ، وأرسل كتبه ورسله إلى عمان واليامة وغيرها .. وكان الرسل يجيبون عما يسألهم عنه الملوك والأمراء ورؤساء القبائل ، ويبينون لهم الإسلام وغاياته على ضوء ما يزودهم به الرسول عليه الصلاة والسلام من التوجيه والإرشاد ، وكان عليه الصلاة والسلام يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كثيرهم ، ويهدم من يفقههم ويعلمهم .

٧ - غزوة الفتح (الفتح الأعظم) :

في سنة ثمان من الهجرة نقضت قرش صلح الحديبية ، فدعا رسول الله القبائل المسلمة أن تحضر رمضان في المدينة ، وانطلق بعشرة آلاف (٢) مجاهد إلى مكة ، ففتحها وقوض الوثنية وحطم الأصنام ، ثم قام خطيباً في ألوف المسلمين والمشركين فمعا عن أعدائه الذين اضطهدوه وآذوه . ثم أعلن كثيراً من الأحكام ، منها ألا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها . . . ثم أقبل الناس يبايعون رسول الله عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان فتح مكة حدثاً تاريخياً عظيماً ، نقله جموع فقيرة ، ونقلت معه خطبة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الآفاق ، كما نقل المسلمون

(١) انظر سيرة ابن هشام ص ٢٧٩ ج ٤ ومصحيح مسلم ص ١٣٩٣ و ١٣٩٧ ج ٣ وانظر أخبار الرسل إلى الملوك والإمراء مفصلة في الصباح الثاني ص ٦٠ - ١١٤ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ص ١٧ ج ٤

الجدد ما سمعوا من إرشاد وتوجيه إلى أهلهم وذوهم في مكة وغيرها .

٨ - حجة الوداع :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة ، إلى مكة المكرمة وحج بالناس ، وكان معه جمع عظيم يبلغ تسعين^(١) ألفاً ، ووقف في عرفة في هذه الجموع الكبيرة وخطب خطبة جامعة بين فيها كثيراً من الأحكام ، منها حرمة دماء المسلمين وأموالهم ، وأداء الأمانة ، ووضع ربا الجاهلية وإبطاله ، كما وضع دماء الجاهلية التي كانت بينهم ومنع العادات الباطلة . . . ومنع النسيء تأكيدياً لما في كتاب الله ، وبين بعض حقوق الرجال وحقوق النساء وحث على حسن معاملتهن . . . ومنع الوصية للوارث . . .

لقد كانت هذه الخطبة الجامعة من أهم العوامل في انتشار السنة بين القبائل العربية ، لأنه سمعها عدد كبير جداً ، ونقلوها إلى الآفاق ، طبقاً لما جاء فيها من قوله صلى الله عليه وسلم « أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ »^(٢) .

٩ - الوفود بعد الفتح الأعظم وحجة الوداع :

بعد فتح مكة أقبلت وفود العرب من سائر أطراف الجزيرة العربية يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم وينضمون تحت لواء الإسلام ، وتتابعت هذه الوفود وكثرت بعد حجة الوداع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحب بالوافدين ، ويعلمهم الإسلام ، ويزودهم بنصائحه وإرشاداته ، وكانت بعض الوفود تقيم

(١) اختلف في عدد من حضر حجة الوداع وفي رواية من أبي زرعة أنهم أربعون ألفاً انظر تلخيص فہوم أهل الآثار ص ٢٧ : ب .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ص ٢٧٦ ج ٤ ، ونحوه في صحيح مسلم ص ١٣٠٦ ج ٣ .

عنده أيا ما تم تمود إلى قبائلهم تبليغهم الدين الخفيف ، ومن هذه الوفود وفد
ضمَام بن ثعلبة الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام ، فعاد إلى قومه
ودعاهم فأسلموا ، ووفد عبد القيس ، ووفود بني حنيفة وعلية وكندة وأزدشنوة ،
ووفد رسول ملوك حمير ، الذين أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك إلى الرسول صلى
الله عليه وسلم ، فبعث إليهم عليه الصلاة والسلام كتابا يخبرهم أنه علم بإسلامهم ،
ويحثهم على طاعة الله والتمسك بدينه ، وفيه وصيته لهم برسله وبيعوته ، ويوصيهم
الخير في الرعية . . . كما قدمت وفود همدان ، ونجيب - قبيلة من كندة -
ووفود ثعلبة وبني سعد من هذيم ووفود كثيرة بضيق المقام عن ذكرها (١) .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى في هذه الوفود الخير ،
فيكرمهم ويعلمهم ، وكانوا يألونه ويحبهم ، وقد سمعوا حديثه ، وشهدوا بعض
مواقفه ، وشاركوه في العبادة ، ورأوا كثيرا من تصرفاته . فكان لهذه الوفود
أثر عظيم في نقل السنة وانتشارها .

ونرى أن تلك العوامل الكثيرة كانت كافية لنشر السنة وتبليغها للمسلمين ،
في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك .

تلك لحظة سريعة عن انتشار السنة في عهده صلى الله عليه وسلم ، وقد حرص
الصحابة والمسلمون جميعا على حفظها وتبليغها ، ولم ينتقل رسول الله عليه الصلاة
والسلام إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية كلها
وساد ربوعها ، وملا القرآن والسنة صدور أهلها ، مصداقا لقوله عز وجل ،
« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا » (٢) .

(١) انظر سيرة ابن هشام من ٢٢١ ج ٤ .

(٢) ٣ : المائدة .